

## الفصل الأول

### التربية القديمة وأساليبها

#### التربية القديمة :

كانت التربية القديمة تهدف إلى تشكيل طبيعة الطفل بأن تفرض عليه طريقة التفكير التقليدية وطريقة العمل العادية ، بله الاستجابة العاطفية . أى أنها أرادت أن تحمل محل التأثيرات الطبيعية الغريزية للطفل تأثيرات صناعية نمتها بحلال عدة أجيال الانبجهاات الدينية والعقلية والاجتماعية التي نظرت إلى العواطف البشرية على أنها شر ، ورأت لذلك أنه يتحتم أن يحال بين القلب ورغباته الطبيعية ، ونظرت إلى الحواس على أنها لا يمكن الثقة بها ولذا فهي ليست جديرة بأن تكون أساساً للمعرفة ، فالنزعات الإنسانية والغرائز تنبع من طبيعة شريرة في أصلها ، ولذا فإن وجهتها هي الشر ، ويجب أن نقتلها ، فالرغبات الطبيعية التي كانت ترمى التربية والدين إلى كبتها والقضاء عليها كان يجب أن يتحاشاها المرءى ، وكل نشاط أو عمل يحتاج إلى مجهود عقلى كبير أو يبعث على الاشمئزاز العاطفى ، كان يحكم عليه بأن له قيمة تربوية ، وكان هدف التربية أن يصب الطفل فى قوالب من السلوك غير طبيعية ، حيث يكون الدافع الطبيعى مختلفياً وراء السلوك الذى يرضاه ويحتم وجوده الكبار ولو كان هذا السلوك يخفى وراءه دافعاً يغاير التعبير الخارجى .

وقد تضافرت العقائد الدينية ، أو الفلسفية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والتربوية على اتخاذ هذا الموقف من طبيعة الطفل . ولم يقتصر الأمر على وجهات النظر الدينية والفلسفية فى رفض التربية المؤسسة على تدريب الحواس ، واستغلال الخيال ، وتوجيه الميول الطبيعية ، والغرائز ، بل شاركتها فى ذلك

وجهة النظر السيكولوجية ، إذ اعتقد علماء النفس أن العقل يتكون من مجموعة متباينة من الملكات ، تنمو وتتمرن بما يناسبها من الأعمال ، وتتوقف قيمتها على صعوبة العمل الذى يؤديه ، ولم ينظر إلى هذه الملكات على أنها متصلة بعضها ببعض ، ولذا اختلفت العوامل المهذبة لها . غير أن هذه الملكات لم تتساو فى قيمتها ، وأرقى هذه القوى فى نظرهم هى ملكة التفكير ، وكانوا يعملون على تنظيمها عن طريق الرياضات العقلية ، والمجادلات المنطقية ، واللغة أما قوة الذاكرة فكانوا يعتبرونها العماد الذى يركز عليه جميع الملكات الأخرى ، وقاسوا عليها نجاح العملية التربوية ، ولهذا أخذ تدريب ملكة الذاكرة يتبوأ المكان الأكبر . وكان أحسن طريق لتدريبهم هو حفظ مواد لا تمت إلى طبيعة الطفل بأى صلة .

وقد ساعدت النظم الاجتماعية القائمة ، على تدعيم هذه الآراء ، فكان الطفل يعتبر « رجلاً مصغراً » لا يعرف له بقيمة أو حقوق حتى يتمكن من تقليد الرجال البالغين ، وفى هذا العصر الذى ساد فيه التكلف والتظاهر فى الملبس ، والعادات والسلوك والحفلات ، كان الطفل يصبغ بصبغة الكبار وتعكس لنا المؤلفات الأدبية التى ظهرت قبل عصر روسو صورة الطفل كما اعتبره الناس عندئذ . فهو ناضج فى كلامه ، ناضج فى تفكيره ، ناضج فى أعماله . فكلامه وتفكيره ، وأعماله لم تكن لتختلف كثيراً عن كلام الرجال ، وتفكيرهم وأعمالهم . وأما من ناحية التربية فكان يعامل أيضاً معاملة الكبار ويدرس ما يدرسونه من مواد ، فاللغات مثلا : كان يدرسها من جميع وجوهها المنطقية والنحوية ، وسيطر عليها بإجهاد الذاكرة ، ويستعملها بالأسلوب التقليدى نفسه الذى كان يستعمله أهل العصر فى هذه الحياة التى بنيت على نظم كلها تكلف وتصنع . تلك هى التربية التى كانت سائدة فى عصر روسو ، وما قبل روسو ، وظلت موجودة طيلة القرن التاسع عشر برغم صيحات قادة التربية الذين تزعمهم روسو . ويمكن أن نلخص الأسس التى قامت عليها الأساليب التربوية القديمة فيما يأتى .

أولاً : لقد قدر لنا في هذه الحياة ما قدر فواجبنا الإذعان لأحكام القدر .

ثانياً : الشر في الطفل طبع لا يستأصله إلا مراقبة الوالدين المستمرة .

ثالثاً : لكل منا في هذه الحياة حدود لا يتعداها ، حتى الطفل يجب أن يبقى في مكانه ، ولو بالرغم منه ، والوسيلة لذلك هي الإرهاب والعقاب . فلنستعرض هذه الأجيال السابقة حيث تحكمت في أساليب تربيتهم هذه الأسس ، ولتناقش كل أساس على حدة ، ومدى ما وصل إليه الآن .

### الأساس الأول :

لقد كان هذا الأساس بما يتضمنه من إذعان لمجريات الحوادث عبئاً ثقيلاً يزرع تحته الناس وخاصة لتطبيقه وقت ذلك ، على الحالة الصحية ، فمن يمرض وجب عليه ألا يشكو ، حتى لقد كان من المأثور في تواريخ حياة مشاهير ذلك العصر أن نرى تلك العبارة الشائعة : « لقد جاهد في القيام بعمله بالرغم عن تردد علته المزمنة عليه » .

فالناس إذا كانوا مرضى دائماً ، والموت يطفى مشعل الحياة في سن مبكرة عنها اليوم ، وعلوم الطب ووظائف الأعضاء مازالت في مهدها ضعيفة الأثر في مقاومة الأمراض مقاومة فعالة ، فما كان على الشخص إلا أن يتجلد بقوة فوق طاقة البشر ليتقبل تلك الأحكام الصارمة المنسوبة إلى القضاء ، لا لشيء إلا لأن القضاء مقدس وحكمه أيضاً مقدس . أما اليوم فإننا لا ندعن لهذا الادعاء ، بل نتمرد عليه ، وننقصه من أوله ، وليس هذا لأننا فقدنا إيماننا وتقديسنا لحكم الله ، ولكن لأنه من العبث أن نشرك « الميكروب » مع الله في القدسية والتعظيم فرضى بسطوته ، وفرضخ لوطأته .

ومن الأمثلة على التطور الحادث في هذا الاعتقاد ما كان مؤكداً منذ جيلين عندما كان يذهب موظف إلى أواسط أفريقيا ، لقد كان يتتابه الخزع

والطلع لأنه يعرف مصيره الأكيد ، فهو مساق إلى « الكوليرا » ، و« التيفوس » ، حيث لا مناص من الموت ، أما اليوم فهو وعائلته يعرفون أين يكمن الخطر ويوجد ميكروب المرض ، فيعتنون بنظافة خدمهم ونظافة ملابسهم لعلمهم أن في طيات الثوب القذر تكمن ميكروبات تبذر الأمراض وتحصد الأرواح .

### الأساس الثاني :

هو الأساس القاسى الذى يحكم على الطفل بأنه شرير ، لا لشيء إلا لأنه يلعب أو لأنه جائع يطلب المزيد من الطعام ليسد به رمقه . فكأن الطفل إذا رُجِّل عليه ما على الرجل من قيود ، ولعل هذا كله راجع لذبوع المثل القائل : « من شب على شيء شاب عليه » .

فالطفل الذى يلعب ، يشب وهو يلعب ، ويشيب وهو يلعب ، ولا سبيل إلى الاصلاح إلا بصولة العصا ، وإرهاب السوط .

ولقد اشتط في استعمال هذا العلاج حتى لقد بذرت في نفوس هؤلاء الأطفال بذور الخوف ، وعدم الثقة بالنفس ، وتردد صدق ذلك في نفوسهم عندما كبروا فصاروا في شك من أمر دنياهم وآخرتهم . وإذا تراجعتنا بعيداً حيث نصل إلى القرن الثامن عشر، نجد أن التربية متناقضة الأوضاع ، فالوالد يحب ولده ، ويتمنى له الخير كله ، لكنه مع ذلك يقسو عليه في المعاملة قسوة تزيد على ما يعامل به أشد الجرمين بطشاً في هذه الأيام .

وهذا مثال لتلك التربية تضمنه خطاب من سيدة لأخرى ، تحدثها فيه عن تربيته لأولادها :

« عندما بلغوا من العمر سنة واحدة علمتهم العصا والخوف منها كيف يحتفظ البيت بهم وبسكونه معاً ، وكيف يكون عويلهم وصراخهم همساً رقيقاً . ولما بلغوا الخامسة من عمرهم سمح لهم بيوم واحد ليتعلموا فيه الأحرف الهجائية ، ولو أن أحدهم قد تعلمها في ساعات قليلة ، وعندما تعلموا هذه

الحروف الهجائية ، بدءوا مباشرة في دراسة المقطوعة الأولى من كتاب شعري قراءة ثم هجاء فكتابة لإملائية ثم المقطوعة التالية وهكذا . ولم يكن هناك ما يسمى لعباً أو لهواً ، بل جد وعمل ست ساعات متوالية كل يوم » .

والإيك ما كتبه سيدة أخرى ابنة قسيس تصف أيام طفولتها كئثال لطفولة القرن الثامن عشر : « لقد كان الزى الشائع للأطفال أن يلبسوا بتيقة من الحديد تتدلى على الكتفين . وقد كان من نصيبي أن عُغلتُ في واحدة منها منذ السادسة من عمري إلى الثالثة عشرة ، من الصباح الباكر إلى المساء المتأخر . وقلما خلعتها أثناء هذه الفترات اليومية ، وكان عليّ أن أتلقى دروساً وأنا واقفة بهذا الزى المتعب ، فما كان يسمح لي أن أجلس في حضرة أحد حتى والدتي ، ولم يكن يُقدم لي من الغذاء إلا كمية ضئيلة ممثلة في كسرة خبز وبعض اللبن البارد ، وعندما أردت أن أتحرر من قيود هذا الزى ، لم أقدر على كبح جماح نفسي في التعبير عن ابتهاجي بالانطلاق إلى الغابة المجاورة ، أعدو ما يزيد على نصف ميل هائمة دون وجهة معينة . وقبل أن أبلغ الثانية عشرة من عمري كنت مرغمة على ترجمة مقطوعة من الشعر اللاتيني يومياً ، وأنا واقفة أرسف في أغلال هذا الزى » .

ومما تقدم يتضح لنا خطأ ذلك الأساس الذي تميزت به التربية القديمة . أما اليوم ولحسن الحظ فقد علمنا الكثير عن وظائف الأعضاء وحاجاتها ، أصبحنا نعلم أنه لا بد للاحتفاظ بصحتنا من أن نتمتع بحرارة الشمس والهواء الطلق ، ونحن وإن لم نتخذ من تلك الوسائل الصحية ضماناً لسلامتنا ، فنحن على الأقل نتخلص من نقد مرير يوجهه إلينا غيرنا .

لقد أصبحت الحياة الآن أكثر بهجة وتسلية من ذي قبل ، وإن المدرسة لم تعد هي فقط سبيل الطفولة إليها : بل هي وغيرها من المعاهد الاجتماعية التي تمت للمدرسة بصلة . سواء الوحدات الطبية المدرسية أم الحدائق العامة .

كل هذا بدأ منذ العصر الفيكتوري ، حيث وضع الأساس للقضاء على القسوة ضد الطفولة ، وما إن جاءت الحرب العالمية الأولى حتى جاءت بفلسفة

جديدة ، فالرجال لا يأملون أن تشرق عليهم شمس الغد فما كان منهم إلا أن يقولوا : « دعنا نشرب ونمرح فغداً سينتهى أمرنا » لكن أمرهم لم ينته غداً كما حسبوا ، وسيمرحون لا في الغد فقط ، بل طالما تتفتح أكمام الأزهار وتغرد الطيور .

### الأساس الثالث :

لنتناول الأساس الأخير من الثالوث البغيض ، الذى قامت عليه التربية القديمة ، ذلك الأساس الذى يحدد الأوضاع في المجتمع ، ويفصل بينها بجدار متراص البنيان ، فلم يعد هناك ذلك الحاجز الكبير بين العمل والمرح ، بل إن العامل المرح أكثر إنتاجاً . وها نحن أولاء نرى العامل وقد توفرت له وسائل التسلية والتسرية ، فيجدها لنفسه وعائلته أنتى يطلبها ، فمن سيارات إلى نزوات خلوية وخارجية .

هذه الانقلابات في أسس التربية ومبادئ الحياة ، إن لم تكن قد عمّت ، وانتشرت تعاليمها في ربوع العالم تمام الانتشار ، فستصل إلى ذلك يوماً ما .

ونحن إن عارضنا هذا التيار المنتشر ، فلن تجدى معارضتنا فتيلاً ، ففي كل مكان مدرسة حديثة تربي أجيالاً جديدة ، وضعت من لبان هذه التعاليم ، ونمت على الإيمان والعقيدة الراسخة بها ، وكرست جهودها لتحقيق هذه المثل التي تهدف إليها التربية الحديثة ، فلن يبنى في الوجود مثل هذا المجتمع ، ذى المصانع الكئيبة أو المدن المقترة إلى المكتبات العامة ، أو القوانين الجائرة المتعسفة ، فهذه الثلاثون عاماً الأخيرة قد حققت انقلاباً كبيراً ما كان من المتوقع أن يتم ، ولنا نحن أن نتوقع سير التيار الانقلابي في الثلاثين عاماً القادمة كما سار في السالفة على الأقل .

ومما يواجه المرين من المشاكل ، إعداد النشء لإعداداً يؤهلهم للتغلب على مشاكل المستقبل ، فما لاشك فيه أن لكل عصر ولكل جيل مشاكله الخاصة ، فما كان مقصوداً بالتربية بالأمس ، لم يعد هدفها اليوم ، وهدف

اليوم لن يكون مقصد رجال الغد ، فالعالم دائم التقدم والتغير .  
 فبالأمس كان الناس يَطْبَعُونَ أنفسهم على الطاعة العمياء ، لحكامهم  
 ومدرسيهم ، وكل من له الأمر عليهم ، ولم يكن همهم إلا كسب ما يقتاتون  
 به من ردىء الطعام ، وما يكتسبون به من ردىء الملبس ، لقد كانوا منذ بدء  
 عهدهم بالحياة فى المدارس ، يسامون العذاب ، ويعرضون للجوع يفتت  
 أكبادهم ، والبرد ينحل أجسامهم ، والموت يحصد أرواحهم ، ومن لا يدركه  
 الموت منهم فعليه أن يروض نفسه على التقشف والزهد ، حتى يطيب للسماء  
 أن تناديه ، وما كان التعليم العالى ليزيد عن الأولى شيئاً ، ويخفف من حدة  
 هذه الحياة ، بل يزيد منها كتباً تستظهر ، والمبدأ دائماً واحد ، هو إعداد  
 مواطن خامل ؛ ليتبوأ مركزه الجامد فى ذلك المجتمع الراكد .

أما المرأة فكل تربيتها تعليم القراءة والكتابة والتدبير المنزلى .

أما اليوم فالتربية تنفجر بالطفل إلى حالة تؤهله لأن يتمتع بالحياة . وهذا  
 قانون التعليم الأولى الإنجليزى يبين مقاصد التربية فى فقرة من فقراته (١) :

« إن غرض التعليم الأولى الشعبى هو أن يبنى ويقوى الأخلاق ، ويوسع  
 المدارك ويسمو بها ، وينتهز مدة الدراسة لإعداد الطفل إعداداً صالحاً لما  
 تتطلبه حياته المقبلة ، فيعينه على تكييف نفسه تكييفاً عملياً وفكرياً لهدفه فى  
 الحياة ، ويعتمد هذا التكييف على تكوين العادات وإنمائها ، تلك العادات  
 التى تبذر فى نفوس الأطفال حب المعرفة لما يحيط بهم ، معتمدين فى تحصيلها  
 على أنفسهم مع إلمامهم بما يتفق وحالتهم ، من مواد الأدب والاجتماع واللغة ،  
 التى تيسر لهم القدرة على التعبير عما فى نفوسهم ، وتعرفهم بموطنهم ، وتطبعهم  
 على حب ما هو صالح ، وعلاوة على هذا تعمل المدرسة على تهذيب  
 الفرائض الطبيعية ، وتقويتها ، حتى تدفع بالطفل فى مستقبل حياته إلى الوجهة  
 العملية الطبيعية له ، مع المحافظة على صحة جسمه ، وتقويته ، لا بساعات

يقضيها في التمرين الرياضى فقط بل بتفهيمة ماذا يعمل ، ولماذا ينهج هذه الطريقة دون غيرها .

وبما أن وقت المعلم لا يتسع لكل هذه الأشياء ، إلا أنه يمكنه أن يضع أمام الطفل الأساس العام لهذه العادات ، كى يخلق منه مواطناً صالحاً ، يقدر كل ما هو نبيل ، ويكون مستعداً للتضحية بالنفس فى سبيل الحق بعيداً عن الأنانية وحب الذات ، ذا خلق اجتماعى رياضى .  
ولنا أن نأمل فى الغد تحقيق هذه الآمال التى لا يتسع اليوم لتحقيقها .

## المراجع

1. A.G. Hughes and E.H. Hughes : Learning and Teaching.
2. Sturt and Oakden : Matter and Method in Education.
3. Monroe : Text-Book in the History of Education.

٤ - تطور النظرية التربوية ، تأليف الأستاذ صالح عبد العزيز .